تلك الطفلة

نورالهدى
- السعودية -

هرعت تلقاء شرفتها العالية ، تستروح عبر آفاقها نسائم فيوض ربيعية عاطرة هامسة ، تراءى لها الأفق البديع ملوحا بالآيات الممجدة لمبدعها العظيم .

أنفذت نظرها عميقا في عمق كبد سماء واسعة رحيبة ، كثيرا ما تفر نحوها كلما صهرتها لظى الأجواء الضيقة اللاهبة .

وقفت هنالك متأملة وقد أرست قدميها على أرض تلك الشرفة ، وأرسلت روحها في كل الاتجاهات : عصافير أشواق تحلق في شتى الآفاق والأبعاد . أتتها النسمات هفهافة ندية ، فمست بأوتارها المخملية الناعمة مناطق في ساحة الشعور : بكرا ، لم تقترب من حماها الأيام ولم تلمسها أنامل السنين ، فبقيت كما هي غضة طرية ، تتحدى كر الأيام ، وفر الليالي أن يخطوا في حماها ويحدثا فيها أدنى تغيير ، كأنما هي قلعة مملكة عصية على أي اقتحام لتغوص تلك النسمات الشجية في مسامها وتتغلغل في ذراتها وجدا مبرحا .

واستغرقت في البعيد شاردة ، لتغيب في عوالم سحيقة نائية ، كما لو أنها لم تعد حاضرة تحيط بما حولها .

في تلك الأثناء .. سمعت صوتا رقراقا صافيا مليئا بالشجن شاعرا يناديها في عذوبة حانية - لعلها استفاقت على ندائه إذ ذاك - فالتفتت نحو مصدره متلهفة إذ شعرت به يناغي حسا في دمها متوهجا .. فإذا به يشرع أنظارها على مشهد ما أروعه لعالم فاتن خلاب ، وقفت مأخوذة تتملى روعة ذلك العالم الأخاذ الذي شدها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها آخذا بتلابيب قلبها إلى عالمه السحري بقوة فولاذية لا تقاوم . إنه عالم طفلة ، رأتها تخطر مقبلة ، فاتحة ذراعيها بكل ابتهاجات الطفولة العذبة : لأشعة شمس الحياة البازغة ، تتقافز قلبها نشوى في رحاب أفياء مخملية حالمة ، تطارد فراشات الربيع الملونة ، باندفاع انبهار البدايات ودهشة الاكتشافات الأولى ، تتحسس حبات الندى الهاجعة في سكون على أكمام الورود المحدقة في سماء الكون ، تسبح لفاطرها بالغدو والآصال ، تعد ألوان الزهور العشبية المغرية للنظر الاستكشافي المنبهر بما لم يرن عليه صدأ الإلف والاعتياد بعد ، تقلب البصر في أشكالها البديعة الكرة تلو الكرة فيزيدها ذلك انبهارا بإتقان صنع الجليل ، تصدح منشدة تجاوبا مع نغمات الأطيار المغردة على الأشجار .

بهرها مرأى تلك الصغيرة وعالمها الأخاذ ذاك ، تلك الصغيرة المتوشحة بالبياض ، كزهرة ياسمين تضوع أريجا خالدا ، يبعثر ذكريات البدايات الباكرة الراكدة تحت قشرة الأعماق المتأججة .. أغراها ذلك بأن تمضي إليها لتشاركها بهجة عالمها .

اقتربت منها وأخذت تلعب مثلها ، تسابقها ، تطارد الفراشات ، تركض في الحديقة عبر طرقاتها ، تتسلق الأغصان والشجيرات ، تجمع الزهرات ، تتمرغ على العشب الأخضر ، تقفز متمايلة ذات اليمين وذات الشمال ، وهي ترفع قدما وتضع أخرى راكضة ، تفل شعرها ، تطوح برأسها يمنة ويسرة ، تدور حول نفسها إلى أن تفقد

التوازن وتقع أرضا ، تصعد التلال الرابية وتهوي من أعلاها متدحرجة إلى قرارة السفح ، تكوم الرمل أمامها ، تبسطه وتطبع عليه بدموع أفراحها خطوط استشرافات غدها الزاهر في خلدها ، تكومه أخرى وتدس فيه ضحكات أحلامها الساذجة . فعلت كل ذلك محاكية تلك الصغيرة ، لعلها تشاركها روعة عالمها لكنها فشلت ، فتنهدت :آه لو أستطيع أن أنظر إلى هذا العالم بعيني هذه الطفلة . عندئذ خطرت لها فكرة جنونية ، فقالت لنفسها لم لا أقوم بتنفيذها حالا فاقتربت من تلك الطفلة وقالت لها : بي وجد كاسح ، يركض في عروقي جامحا ، ويلهث في دمائي شائطا لأن أسكنك ، أريد أن أتسربل في جلدك وأتوغل في دمك ، فهل تسمحين لي بأن أسكنك ؟ فأجري في عروقك مجرى الدم ؟ ثم بادرتها مندفعة نحوها ، دون أن تنتظر الإجابة ، ومدت يدها تمسك بها وتضمها إلى أقصى الحنايا.

ولكنها ألفت تلك الطفلة تتفلت منها وتتلاشى من بين أصابعها.

بسطت راحتيها إلى كفيها ، فرأت بريقاً يلمع لاشيء سواه. تساءلت أحقاً هربت تلك الصغيرة.؟!

نعم ... وأخذت معها كل شيء ، فلم تعد ترى تلك الفراشات ، ولم تعد تلمس حرارة تلك المشاعر المتوهجة الخضراء.

عادت تحدق في ذلك البريق اللامع في كفيها وتخاطبه : أواه ! كم أنا عطشى لسلسبيل حقيقتك .. ولكن أين هي .. أين هربت تلك الصغيرة ؟! أين هربت منها ، ولِم هربت ؟! هل أخطأت في حقها فلذلك هربت بعيداً عنها ؟! هل جنون تلك الفكرة واستحالة المطلب كان سبب هروبها ؟!هل أخطأت بذلك في حقها ؟!

لا ، إنها لم تخطئ في حقها.

- إذاً لم هربت ؟!

جاءها الجواب فظاً غليظاً صافعاً ، تلك الطفلة التي لم تزل في أعمق الأعماق ساكنة بكل قوة : لقد كبرت.

– كبرت !! قالت ذلك متعجبة ، وهي تحرك شفتيها بسؤال هامس ملتاع : متى كبرت؟ وهي قبل برهة يسيرة كانت معي هنا ترتع !! وكيف كبرت ؟ وأين توارت وتوارى معها عالمها السحري ذاك ؟! ياله من عالم ساحر بهيج خلاب !! فإذا بها تسمع تلك الطفلة تصرخ في أعماقها كأنها تجاوب صدى أشواقها المنتحبة في صدرها : لقد كان ثمن أفراحنا زهيداً ، ومع ذاك كنا نفرح حتى أعماق الروح ، وإن لم ندفع ثمنه. أما اليوم فثمنه جد باهظ ، وعلى الرغم من دفعنا إياه إلا أننا فقدنا ذلك الشعور الندي الأخضر الذي يصل مشاعرنا بحميمية دفئه وصفاء صدقه ، فعادت تلك الطفلة من جديد تصرخ في تلك الأعماق كمن شده هول أمر حدث لم يكن في الحسبان أبداً : لماذا ... لماذا أيتها المرأة الراشدة ، أجيبيني لماذا ؟!

– لأننا كبرنا يوم أن أدركنا حقيقة ما علينا أن ندفعه ثمناً لمصادرة تلك الأحاسيس المغادرة أوطان طفولتنا السعيدة ، إذ عرفنا مكابدات دنيا الكبد ، وعرفنا ويلات الحياة الضاغطة لطفولتنا تلك في سمّ نقطة ضيقة من مجال محيطها الواسع.

إيه يا حزن!! كبرنا وكبرت في صدورنا الهموم ، فلم يعد في القلب المزدحم بتلك الهموم متسع لنكهة تلك الأحاسيس العطرة الغضة الندية الوهاجة في سماء الحبور والمسرات ، المتنائية عن أي تعكير يطال صفوها ، تلك التي كانت ، التي ربما تكون قد أمست اليوم نوعاً من الترف في قاموس هذه الطفولة البائسة ، في زمن شاخت فيه أحاسيسه الطفولية ، ولم يعد في قاموسها ذاك مكان يستوعب معانيها البريئة ، زمن ما فتئ يدمي رؤاها بشناعة البشاعات ، ويصعق مسامعها بفظائع الظلمات ، ليصدم فيها روح البراءة بكل تحد وصلف ، وهو يصبغ ألوانها الناصعة بلونها الدامي الجريح ، زمن كل مافيه نراه مصراً على أخذنا من تلك الطفولة عنوةً ، ولو كنا في طور البدايات براعم ، ليجعلنا كباراً قبل الأوان ، لنجد أن تلك الطفولة قد انحسرت عنا ملامحها البراقة الزاهية ، في لمح البصر ، لتسقط في دواخلنا عطشى مكلومة ، وتظل هناك محسورة. إنه زمن المآسي المتجذرة أشواكاً في المآقي ، المتوج ألماً سارباً في الآذان مع كل صرخة تطلقها روح متألمة ، أنفاس عذابات سقيمة ترن في السمع برهة ثم ترتد على أعقابها ناكصة حسيرة ، إذ لا مجيب. زمننا التعس هذا ، المتفتق جراحاً تنز صديداً في بؤبؤ الأحداق مع كل صورة للبؤس والظلم والطغيان ، تطالعنا صباح مساء من هنا وهناك مع كل صوت آت أو غاد فأنى لنا أن نعود أطفالاً لنفرح في زمن ما عاد للطفولة فيه طفولة تؤهلها لصدق ذلك الفرح ، فكيف بنا نحن من تجاوز تلك المراحل الباكرة ! وقد شابت براعم هذه الطفولة في أحضان مهودها ، لهول ما ترى وتسمع ، إذ لم يعد لها وطن حصين تستوطن السكينة الآمنة في حماه الوديع الهانئ أفهمت ذلك ؟! إذاً فمن العقل أن ترضخي لما ليس منه بد ، فتسلمي بحقيقة الواقع. قالت ذلك لتلك الطفلة أو لنفسها ، ثم أسدلت أجفانها على عبرة حرّى فأرسلت العين مدادها ناطقاً بهمس صارخ : ما أقسى الرحيل عن أوطان تفتح زهور مشاعرنا الأولى إلى منفى صقيع الحياة الجرداء القارصة الجارحة ، دموع جمّة من أعين القلب نافرة هطلت ظامئة ، رأت تلك الطفلة فوق الرموش واقفة تطل من خلال التماعها ضاحكة.

وكرّت الدموع – على الخد – مهرولة ، تصفع بتجهم الحقيقة العابسة شاعرية الأحلام الدافئة ، لتواري بصفعها تلك الصور الخافقة في مرآة الحس الحاضر أبداً.

وتسقط مع كر الدموع طفلة الشجى والشجون الظامئة. بعيداً بعيداً ، تسقط هناك في شغاف الروح النائبة ، لتخلد هنالك أشواقاً واجدة وحنيناً دائباً . . إلى عالم تلك الطفلة ...!!